

النقد الادبي

فائدة - طريقة العملية

بقلم فؤاد افرام البستاني

استاذ الآداب العربية في كلية القديس يوسف



في جريدة «البشير» ، لاربع سنوات خلت ، سلسلة الجبحاث في ماهية النقد الادبي ، وتلويحه عند العرب ، وتطوره حتى عصرنا . وقد سُئلنا مراراً منذئذ عن طريقة عملية للنقد الصحيح ، يطبقها طلاب الصفوف العالية في درس الآثار الادبية ، فتسكنهم من فهم عناصر الجمال فيها ، ومن التمييز بأسلوب مقبول عن ائتلاف هذه العناصر وتساوقها لاحداث التأثير الفني الظاهر في كل أثر من روائع الفكر البشري ؛ وآخر ما شعرنا بالحاجة الى هذه الطريقة في شهري حزيران وتشرين الاول الماضيين ، اثناء تصليح مسابقات المتقدمين لامتحان البكالوريا اللبنانية ، اذ رأينا اكثر الطلاب يخطون في تقديم هاتين بين قواعد الصرف والنحو والبيان ، دون اهتمام بالفرق الجوهرية بين نقد المعنى ونقد المبنى^(١) . فرأينا ان نجتمع في مقال مختصر ما نراه ضرورياً من قواعد النقد الادبي ، ونبسطة بأسلوب سهل ظاهر التقسيم ، فيتمكن الطلاب من حفظه ، وتطبيق اقامه على كل قطعة يطلب منهم تقديمها . . .

ورغني عن البيان ان النقد الادبي من اخصب الفنون الادبية فوائد للرياضة ، ومن اوفر التامين العقلية نتائج للتأديب . لانه يحد نطاق الفكر في درس قطعة مساومة فيحدّ الذهن في البحث عن محاسنها ومساوئها ، فيفتح الفاظها وتمايزها ، ويحلّ جملها وقراءتها ، فيشاهد الكتاب في معمله ينتقي من المعاني

(١) راجع ما قلنا من هذا النوع واسيابه في شرح السنة الحادية ص ٢١٢ و٢١٣

أوقها ومن التعابير اليقها ، ويحضر الشاعر في مختبره يختار من الصور أوفرها سلوعاً ومن العواطف أرقها تأثيراً ، ومن القوافي أبعدها صدًى . ثم يسير متقللاً من فكر الى آخر حتى الفكرة الشاملة فيعرضها على محك بصيرته وذوقه ويرتقي منها الى صاحبها ، اي المؤلف ، فيدرس عقلته ، مجتهداً في تصور زمانه ومكانه وتفهم عوامل بيئته ، وما كان لكل ذلك من التأثير الحسن او السيئ . في القطعة المذكورة . ثم يدرس الصلة بين الفكرة الشاملة والافكار الثانوية من جهة ، وبين هذه الافكار واسلوب التعبير عنها من جهة اخرى . ويعود وقد مرّن ذهنه بدرس ذهن المؤلف ، وروّض مخيلته باتباع مخيلة المصور ، ورتق شعوره بالاحساس بشعور الشاعر ، وربّى ذوقه بعرضه على ذوق الكاتب ، فيصبح ادق بصيرة ، من ذي قبل ، في درس الآثار الفنية ، واصوب حكماً على مولدات الفكر البشري ، وافر احساساً بالجمال على مختلف مظاهره .

هذا ما يستفيدة الناقد ، او ما ينبغي له ان يستفيدة ، اذا عمل بصيرته في القطعة المطلوب درسها ، وسار في عمله على اسلوب قويم يقوده الى لب التقد الادبي .

اما هذا الاسلوب فسنجتهد في تحديده ، وبسط اقسامه ، ومماية كل منها ، مرتين كلامنا على اربعة اقسام : اولها التوطئة ، وآخرها الحكم العام :

التوطئة : ذكر المؤلف ، وتحديد مركز القطعة في تأليفه

لا يخفى انه كثيراً ما تكون القطعة المطلوب نقدها متخبة من تأليف مشهور ، فقد تكون وصفاً لليل او للجواد او للقتال ، مأخوذاً من احدى المملقات ، او رأياً لابن خلدون في تأثير المراء في الاخلاق ، او درساً حكماً للنزالي ، او ما شاكل . فينبغي للناقد ، والحالة هذه ، ان يجتهد في تبيان الصلة بين هذه القطعة المنفصلة ، وما فصلت عنه من سائر قطع الكاتب او الشاعر في تأليفه ذلك ، مشيراً الى آرائه المبتة ونتائج التي تجب معرفتها لفهم القطعة المذكورة . ومن ثم يتطرق الى ذكر ما يعرفه عن المؤلف ، بما يفيد الموضوع الحالي ، وما وقف عليه من الظروف المكانية والزمانية التي دفعت الكاتب

الى تأليف كتابه عامة وهذه القطعة خاصة . اما اذا كانت القطعة منفردة ، مستقلة بنفسها ، كأن تكون مثلاً خطبة تامة لملي بن ابي طالب ، او مقامة للهذاني او الحريري ، او قصيدة برأسها للمتني او لابي تمام ، او رواية كاملة للاصبهاني ، او مقالة عصرة ، او ما شاكل ، فلا حاجة الى التوقف عند ذكر الصلة بينها وبين سائر آثار الكاتب ، بل يكفي بذكر المؤلف ، والظروف التي قد يكون ذكرها ضرورياً جداً اذا كانت القطعة تاريخية او تمت الى حادث تاريخي ، كما نرى في رسائل علي الى معاوية ، وفي قصائد المتني وفي اكثرية مقالاتنا وقصائدها المصرية . فاننا لا نفهم حق الفهم رسائل نهج البلاغة ، ولا مدائح المتني لسيف الدولة ، ولا مقالات ولي الدين يكن مثلاً ، ان لم نلهم ، وان سطحياً ، بحروب علي ومعاوية ، وبمشارك سيف الدولة ، وبظلم عبد الحميد ومناهضته للاررار .

ويشأن ان الطالب بعيد عن ان يدرك ، وحده ، هذه المعلومات ، فيجب على المعلم اذا ، او على الناحص ، ان يقرن القطعة المطاروب تقديماً بما يلزم من الافادات عن المؤلف وذكر الحوادث الظرفية التي دفعته الى تأليفها . فيكون من واجبات الناقد ان يبك ذلك بجملة مقبولة واسلوب مختصر ، متحاشياً التطويلات والشروح النافلة التي لا تتناسب وسائر اقسام النقد ، فيضيع وقته ووقت مطالعه ، وينجرح عن الموضوع المقصود .

القسم الاول: تحليل القطعة

زيد بتحليل درس تكوين القطعة قساً قساً ، وتفكيكها جزءاً جزءاً ، مع اظهار اللحمة بين هذه الاجزاء ، وعرضها بطريقة مصفحة تنبني المطالع عن قراءة النص المذكور . واذا فعلى الناقد أن لا يخلط بين التحليل والحل المبر عنه في عرف البيانين « بان يعمد الكاتب الى ما نظمه غيره فيرويهِ بالثر » ، وان لا يخلط ايضاً بين التحليل والشرح ، وهو أن يعمد الى فكرة الكاتب فيوسمها لير يعلق عليها . فكم من الطلاب ، اذا طلب منهم نقد قصيدة من مدائح المتني ، ينصرفون سريعاً الى حلها بيتاً بيتاً فيوردون بثمهم المضطرب الركيك ، ما اودعه الشاعر نظمه الرشيق الثمين . واذا فرض

عليهم نقد خطبة من نهج البلاغة ، يسرعون . الى شرح بعض الفاظها فيذكرون ما يلفت نظرهم فيها من نكات اعرابية او نحوية ويكتفون بتطبيق شيء من الشرح على بعض فقراتها ليس هذا من التحليل في شيء . اما التحليل الذي نقصد ، وهو العمل التمهيدي للنقد بجمصر المعنى ، فيقوم بأمرين :

١ - غاية المؤلف

لكل عاقل غاية في ما يتفوه به من الاقوال ، او في ما يأتيه من الافعال ، فكيف بالمؤلف يذيب دماغه ويحبي ليليه في قرض مقطوعة ، او تحرير مقالة ، او تدييج خطبة ! فاول ما يجب علينا اذا ، هو التفتيش عن غاية المؤلف في قلمه . وقد يقال لهذه الغاية الفكرة العامة ، او الشاملة ، او المسيطرة ، او قصد المؤلف وكثما كلمات لا عبرة باختلافها الظاهر اذ ان مضمونها واحد يكون تارة وصف حادثة ما ، او درس اخلاق ، او تصوير مظهر من مظاهر الحياة ، او ايراد حكمة ، او سرد قصة واقعية او مخترعة ، او مدحا او هجاء ، او غير ذلك من فنون الانشاء المتعددة التي يسير بينها المنشرون ، فيختارون ما يروقهم ، ولا اعتراض عليهم في شيء من ذلك . اذ لا يمكننا ان نلوم المؤلف لتفضيله موضوع فخر مثلا على سرد حكاية ، او لميله الى درس بعض الاخلاق عن درس مظاهر الطبيعة . والخلاصة ان للمؤلف ملء الحرية بانتقاء اي موضوع شاء ، على ان يظل ذلك الموضوع ضمن الحدود الادبية التي يقرها الذوق الكامل المذنب ، وتتطلبها اللياقة الانسانية الجديرة بالاعتبار والاحترام .

٢ - طريقة المؤلف للوصول الى غايته

ان وجود الغاية او القصد يفرض وجود طرق واساليب يسير عليها المؤلف للوصول الى تلك الغاية ، او لبلوغ ذلك القصد . وهنا ندخل القسم الثاني من تحليل القطعة ، الا وهو تفكيك اجزاها ، واحداً بعد واحد ، الاطلاع على اللحمة بينها ، والوقوف على نوع ترويقها بعضها الى بعض لفهم الطريقة التي ادت بصاحبنا الى غايته . وبكلمة اخرى علينا ان نحلل الافكار الثبوتية في القطعة لترى تساقطها كلها الى تحقيق الفكرة العامة ، وهو ما يسمى بدرس

التقييم ، او باعادة رسم القطعة المحللة لو فرضنا قصيدة ينظمها المتنبي في سيف الدولة ، « لكل امرئ من دهره ما تعدوا ! » مثلاً ، فتكون غايته فيها او فكرته العامة المدح . اما ما يورده من مفاخر سيف الدولة كعموده العلية ، وذكائه ، وترفعه عن الملوك ، وبطشه بالروم ، وادلاله على الخليفة ، وحكمته ، وكرم سجاياه وأريحيته الخ . . . فيكون من الافكار الثنوية التي يجب علينا تعدادها والاشارة اليها في القصيدة واحداً بعد واحد ، ثم ترتيبها على النسب الذي اوردها به الشاعر . علينا ان نقوم بذلك على طريقة وضعية بحتة ، اي خالية من كل عبارة قد يظهر منها الذم او المدح . لان واجب الناقد الاول ان يبسط عاية الموانب الذي يتقده ، ويحلل اقسام مؤلفه ، على اسلوب خارجي محض وافر البرودة ، كثير الدقة الوضعية ، يترفع عن العاطفة والميل . حتى اذا فرغ منه تناوله بالنقد ، وهو القسم الثاني من بحثنا .

القسم الثاني : النقد

اما النقد فيدور على شيئين ايضاً : نقد المعنى ، ونقد المبنى .
١ - نقد المعنى

تقدم أن نقد الفكرة العامة ، او غاية المؤلف ، لا يتيسر عادة ؛ وعليه يجب الانصراف الى نقد التقييم . ويكون بالنظر في تلك الاجزاء التي عرضناها سابقاً بطريقة وضعية ، فنأخذها الآن فكراً فكراً ، ونحكم على كل واحد منها : اولاً بمدحه ، ثم بالنظر الى مركزه من التأليف . ولا بد هنا من ايراد مثل يوضح هذه القواعد النظرية . فلنرجع الى قصيدة المتنبي ، ولنسأل نفسنا إذا . كل معنى : هل هذا حسن ام لا ؟ وهل هو موافق ؟ مثلاً : هل وصف سيف الدولة بالبطش حسن في حد نفسه ؟ فان كان الجواب نعم ، انتقلنا الى السؤال الثاني وهو : هل وصف سيف الدولة بالبطش موافق لغاية الشاعر في هذه القصيدة ؟ فان كان نعم ، ثبتنا بسؤال جديد نقلنا : وكيف ذلك ؟ ثم انتقلنا الى المعنى الثاني ، وهكذا الى ختام القصيدة . ولكن لا يتوهم الناقد ان من واجبه تعداد الاسئلة ، او سببها كلها يقابل واحد ، او الوقوف بها عند كل معاني القطعة ! لا فان كثيراً من القطع لا

يتمثل مثل هذا التدقيق في البحث ، وان كثيراً من المعاني لا تستحق هذا الاهتمام . فلي الناقد ان يعتمد على بصيرته وحسن ذوقه . اما اذا كان الجواب عن السؤال الاول او الثاني سلبياً ، فيلزمنا القول : لماذا ؟ وما هو المعنى الاحسن ؟ او ما هو الافضل ؟ وكيف كان يجب على الشاعر ان يسير حتى يصل الى غايته على اهون طريق ؟

ولا يخفى ان للثقافة الادبية الحقة ، وللمادة النقدية الصحيحة ، وللذوق السليم المهذب الدور الاول في تحقيق هذا النقد ، وافرار المعاني المواقفة من غيرها ، وترتيبها كلها وفقاً لمنفعتها واهميتها بالنسبة الى الناية المتوخاة ، ولا سيما ان كانت القطعة متعددة الافكار ، متباينة الاقسام ، متشعبة المقاعد الثنوية ، كما نرى في اكثر قصائدنا القديمة .

٢ - نقد المعنى

ولا يتصورنَّ الناقد انه اذا انتهى من هذا العمل ، فقد اتمَّ مهنته وقال الفائدة الناتجة من النقد الادبي لقد قام بشيء مهم ، ولكنه لم يقيم بكل شيء
نقد المعنى ، فبقي عليه نقد المعنى . وما المعنى الا الطريقة الخاصة بكل مؤلف ، يلجأ اليها اذا ما اراد ان يوصل ما يجول في خاطره ، وما يختلج في فؤاده ، وما يتشغل امام مخيلته ، الى قرائنه . ما المعنى الا الانشاء اللاصق بشخصية الكاتب الى درجة دفعت يوفون الى القول : « ان الانشاء هو الرجل نفسه »
ما المعنى الا الاسلوب المندمج في روح الاديب الى حد جعل فانيه يقول :
« انما يجلد الانسان بأسلوبه »
بهذا المعنى الراسع نفهم المعنى ، ونرى من الضروري ان يتبسط الطالب في نقده . وآول ما يجب عليه ان يقف على الصفة العامة لهذا المعنى ، سواء كان اسلوباً نثرياً بما يجزه من توازن بين الفقرات وتوفيق في اختيار المفردات ، او شعرياً بما يقوم به من وزن ، وروي ، وصناعة . ثم عليه ان يلاحظ العلاقة بين الاسلوب الانشائي المتمثل ونوعية الناية وما يقود اليها من الافكار الثنوية ، فيسأل : هل يوافق هذا الاسلوب الفسح او الهادي ، او المقضب ، او العصبي او للتعبير عن المعاني الغضبية ، او الحكيمية ، او العاطفية الساكنة او ثم ان كان كل ذلك مراققاً ،

هل احسن الكاتب باستعمال اسلوبه ؟ وكيف ذلك ؟ وان لم يحسن ، اي اسلوب كان عليه ان يشمل ؟ ولماذا ؟

وبعد هذه الملاحظات العامة ، ينحدر الناقد الى جمل المؤلف ، فيتبع ابتكاراته ، وتعايره الشخصية . وهنا المجال افسح من مجال المعنى ، اذ لا يخفى انه من الاسهل بما لا يقاس على الكاتب ، ان يكون مبتكراً في تعابيره ، من ان يكون مبتكراً في معانيه ، لان « الشعراء لم ينادروا متروكاً » . بهذه التعابير الفردية تبدر مظاهر شخصية الكاتب الادبية ، فملي الناقد ان يتبعها حتى يولف منها صورة لتلك الشخصية ، وليجتهد في ان تكون تامة . ثم ينحدر ايضاً الى نقد الكلمات ، فيرى فيها كما رأى في التعابير ، حنبا الذاتي ، وموافقتها للمعاني . ويجب عليه في هذا القسم ان يقوم بما يلزم من الشرح اللغوي لاسيما في ما خص الكلمات الرضية ، او الدقيقة ، او التي استعملها المؤلف عن قصد خاص ، فيفتحها الواحدة بعد الاخرى ، ويستخرج مضمونها فيعرضه على الفكرة التي شاء المؤلف الباسها تلك الكلمة . ومن الضروري هنا ان يستعمل القاموس ، لان في مرآة كتب اللغة من النفع ما لا يكاد يتصوره اكثر اساتذتنا ، وما لا تهتم به ، لسوء الحظ ، جبهة طلابنا . فينتج من كل ذلك ان الاساتذة يتعودون شرح الكلمات بترادفها - والمترادف الحقيقي في اللغة قليل وقليل جداً ، ان لم نقل غير موجود - فيفسون الفروق الدقيقة بين كلمتين تشتركان بالمعنى العام ولكنها تباينان بما تجرّه كل منها من الجوار الخاص بالمعاني الثنوية ، فتقلل المعاني ، اذ ذاك في ادمغة التلاميذ ، فيلجأون الى التعريب ، في فهم النص الادبي ، وخصوصاً في شرحه .

وفي هذا القسم ايضاً ، مجال للاشارة الى ما يستحق الذكر من الملاحظات الثنوية ، ولا يُريد بها اعراب الكلمات ، كما قد يتوهم البعض . فالاعراب ليس من النقد الادبي في شيء . وان بدا لازماً احياناً لفهم تركيب دقيق او لتحديد موقع لفظة ما . وعلى الناقد ان يأخذ منه بمقدار ، وان يتبته خصوصاً لما يهيم الوقوف عنده من التراكم الخاصة او التعابير التي قد لا توافق مشهور المؤلف

عند النحاة ، كأن يسع مثلاً ، في نقده قطعة من روايات الاغاني ، احد اشخاص ابي الفرج يقول مستهتماً : « وانا اصنع ماذا ؟ » فيشير الى استعمال اداة الاستفهام بعد الفعل ، فيدل على معرفته القواعد من جهة ، وتبطله لكل بادرة تستحق الذكر من جهة اخرى .

وعلى الجلبة زى ان واجب الناقد ، في ما يخص القواعد ، لتوية كانت او نحوية ، يقوم بان يستعملها ، لا لاضجار المطالع باعراب مفردات القطعة او بشرح الفاظها لفظة لفظة ، بل للاشارة الى ما لعله يفيد الغاية العامة من النقد بأن يوفر له ابداء بعض الملاحظات المهمة .

الختام : الحكم العام

جرينا في نقدنا ، حتى الآن ، على اسلوب تحلي محض بادنين بالمركب فالبيط فالابسط ، منحدرين من الغاية العامة الى الافكار الثنوية ، ومن الاسلوب الاجمالي ، الى التمايز ، فالى الالتقاط . وهو افضل اسلوب للوقوف على مركبات القطعة الفنية واحداً واحداً ، وليس اللحمة الظاهرة او الخفية التي تجمع شاتها وتجعل منها وحدة ادبية . وقد آن لنا ان ننقل الى استعمال الاسلوب الجمعي ، فنلقي الحكم على هذه الوحدة ، بعد ان اقيناه على اجزائها . ويكون ذلك بتلخيص ما تقدم من الملاحظات ، وباختصار حكم نهائي عام نحدد به القطعة المفروضة ، ذاكرين ما تقتضيه من التعليق من حيث الادب والفن او الاخلاق او التاريخ ، متجنبين ، في هذا ايضاً ، ما تجنبتنا سابقاً من الاندفاع العاطفي مع المؤلف او عليه ، ومن الملاحظات العامة ، وطرق التعجب المتبدلة التي تفيد كل شيء . ولا تفيد شيئاً . ثم ترتقي مجالاً اعلى نلقي منه نظرة اعم واشمل تتناول شخصية المؤلف ، صاحب القطعة ، يجمعها اذا امكن ، فنصفها بحكم مختصر ايضاً ، وتبين موافقة القطعة المفروضة لما نعرفه من اسلوبه الانشائي وطريقته الفنية .

هذا ما رأينا بسطه من قواعد النقد الادبي ، فمضى ان يكون فيه ما يدفع متأدينا الكرام الى التبصر في ما يقرأونه من النصوص الادبية ، ليتفهموا ما فيه من جمال ، ويعتبروا منه في آثارهم .